يستغربون

تداولت وسائل الاعلام ووسائل التّواصل الاجتماعي، العربيّة منها والأجنبيّة، حَدَثًا خلال مباريات كأس العالم المُقامة في قطر. يروي الحدث قصة شاب فلسطيني، يسير وهو يحمل علمًا فلسطينيًا كبيرًا وعلى كتفه طفل صغير. ممّا يتّضح أنّ هذا الطّفل لأم برازيليّة كانت من بين المتفرجين في إحدى مباريات كأس العالم. وعند نهاية المباراة خرجت متوجّهة إلى "المترو" مع ابنها الصّغير الذي غلب عليه النُعاس فقام الشّاب الفلسطيني بحمله.

شاءت الأقدار أن يكون هذا الطّفل حفيد مدرّب الفريق البرازيلي. لقد انتشرت المشاهد بصورة كبيرة على منصّات التّواصل الاجتماعي، ممّا جعل المدرّب البرازيلي يعقد مؤتمرًا صحافيًا بحثًا عن الشّاب الفلسطيني الذي حمل حفيده، ليقدم له الشّكر والامتنان. يعتبر هذا الحدث بالنّسبة لنا حدثًا عاديًا وطبيعيًّا يحدث كل يوم في مجتمعنا. أمّا بالنّسبة لهم فهم يستغربون من حدوث شيء كهذا. أمّا نحن فنستغرب لاستغرابهم.

إنّهم يستغربون أن يقوم شخص غريب بحمل طفل صغير، مساعدة لوالدته المتعبة. بالله عليكم كيف يستغربون من حمل طفل صغير ونحن من حملنا القضيّة 75 عامًا من المعاناة والهموم والمشقّة والتّهجير، حملناها وما زلنا نحملها نحن وأولادنا.

يستغربون أننا نعتني بكبارنا، بآبائنا وأمهاتنا، إذا بلغ الكبر أحدهما أو كلاهما، ولا نلقي بهم في المؤسسات ودور المسنّين.

كيف يستغربون وقد أوصانا الله عزّ وجلّ بهما خيرًا، وأمرنا رسول الله ببرّهما بحديثه: "أمك أمك أمك ثم أباك".

يستغربون عندما نتعرّف عليهم وندعوهم إلى بيوتنا كضيوف مرحبٌ بهم، ويحظون بكل الاحترام والتقدير وأفواهنا تنطق "بحلِلتم أهلًا ونزلتم سهلًا". كيف يستغربون وشعرائنا يتغنّون منذ آلاف السّنين بقرى الضّيف.

يستغربون عندما يرونا نتسابق في المطاعم والمقاهي لدفع الحساب. بل إننا نتعارك ونغضب ونحزن إذا لم نقم بالدّفع. هم يستغربون لذلك ونحن نستغرب عندما نراهم يتقاسمون المبلغ كل على حدة.

يستغربون عندما يُعيد أحدنا حقيبة مملوءة بالنّقود لأصحابها الذين فقدوها أو نسوها في سيارات الأجرة أو الحافلات.

يستغربون عندما نلفت انتباه صاحب المصلحة أنه قد أخطأ في الحساب وأنه علينا أن ندفع أكثر. كيف يستغربون وقد أوصانا الرسول الكريم بإعادة الأمانة إلى أصحابها.

يستغربون عندما يتوقف أحدهم في سيارته لأي سبب كان، ليجد أنّ الشّخص الذي توقّف لمساعدته هو شخص عربيّ، معرّضًا نفسه للخطر. كيف يستغربون ونحن من تربّينا على مساعدة الضّعيف والمقطوع والغريب.

يستغربون أننا ما زلنا متمسّكين بالقيم والأخلاق والعادات والتّقاليد الحميدة، رغم الإغراءات في عالم غريب متسارع نحو كل ما هو مادّي ورأسمالي.

يستغربون عندما يتدخل أحدنا لفضّ شجار أو قتال، لا ناقة له فيه ولا جمل، إلّا رغبة منه في إصلاح ذات البين، وكثيرًا ما يدفع هذا الشّخص الثّمن غاليًا، حيث يُصاب أو يُهان وفي أحيان نادرة يُقتل جرّاء ذلك.

كيف يستغربون ونحن من نادينا بالمحبّة والإخاء بين النّاس اعتمادًا على قوله تعالى: "إنَّما المؤمنون إِخوة".

أتعرفون شيئًا؟! دعهم يستغربون!

وهل يمكننا أن ننهي حديثنا بدون طرفة:

منذ نحو نصف قرن ودّع جارنا عبّاس والديه مهاجرًا إلى البرازيل. ومرّت به السّفينة في مرسيليا فنزل يتفرّج على أهلها. ورأى رجلين يتشاجران والنّاس يمرّون ولا يتدخّلون ولا يتوقّفون ولا يحزنون.

فدبّت النّخوة العربيّة في عروق الرّجل، وأسرع يمسك الواحد ويدفع الآخر، ويقف بين الرّجلين ويشتم الاثنين معًا –بالعربيّة طبعا– حتى أكل ثلثين القتلة.

وأخيرًا، حضر رجال الأمن واستاقوا الرّجلين واستاقوا عبّاس معهم إلى المخفر، حيث ما لبثوا أن أفرجوا عن الرّجلين واحتفظوا به إلى اليوم التالي، لعدم وجود تُرجمان، ولكون رجال الأمن لم يكُن في وسعهم أن يفهموا لماذا يتدخّل رجل غريب فيما لا يعنيه.

وعندما أفرجوا عنه وبعد ما خرج عبّاس من السّجن في اليوم التّالي كانت السّفينة قد أقلعت، فانقطع عبّاس في مرسيليا. وقرر عباس ان يدخل مطعمًا وتغدّى بفرنك واحد، ثم قضى حاجته في إحدى المنعطفات. فغرّموه فرنكين اثنين، فودّع مرسيليا ببيتين من الزّجل:

عشنا بفرنسا يومين وعرفناها عالحالين

بنتغدى فيها بفرنك "وبتقضيها" بفرنكين

دام كرمكم ودامت نخوتكم

أ.أيمن جبارة